معالم منهجية في تفسير ابن عطية الأندلسي [ت: 541هـ]

interpretation of Ibn Atiyah Al- Methodological features in the Andalusi

محمد رضا شوشة *

جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر mr.choucha@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال: 2021/05/01 تاريخ القبول: 2021/05/16 تاريخ: النشر: 2021/06/06

الملخص:

تناول هذا البحث أهم المعالم المنهجية في تفسير المحرر الوجيز، حيث دلّت تلك المعالم على تقدّم ابن عطية الأندلسي وإمامته في التفسير وعلم القراءات والفقه والأصول، ويُستشفّ منها شخصيته العلمية الناقدة والسابرة لكل ما ينقل ويروى في الفنون السالفة الذكر؛ فعلى الرغم من الخلفية الفقهية للإمام إلا أن ذلك لم يكن أدعى له للانتصار لأقوال المذهب وآرائه. كما أثرى تفسيره بذكر أوجه القراءات المتواترة منها والشاذة، مع بيان المعاني والأحكام المختلفة لتلك الطرق الأدائية وتوجيهها. وهو بذلك يتجاوز الطرح الكلاسيكي القديم الذي سار عليه سلفه من أهل التفسير، فكان مؤلفه نموذجا تفسيريا فريدا، ومدرسةً لها معالمها الخاصة، ونهجها المستقل في فهم كلام الله تعالى وتقرير معانيه.

الكلمات المفتاحية: معالم، المنهجية، ابن عطية، المحرر الوجيز.

* **المؤلف المرسل**

Abstract:

This research dealt with the most important methodological features in the interpretation of El-Mohrrar El-Wadjize, as these milestones indicated the progress of Ibn Atiya al-Andalusi and his imamate in exegesis, jurisprudence, and fundamentals, and through this we know his critical scholarly character for everything transmitted and narrated in the aforementioned arts. ThoughHis jurisprudential background, but that did not invite him to victory for the sayings and opinions of the doctrineHis interpretation was also enriched by mentioning aspects of the readings, while explaining the different meanings and provisions of these performance methods and directing themIn this way, he goes beyond the old classical proposition that his predecessor of the people of interpretation followed. His author was a unique exegetical model, a school with its own features and an independent approach to understanding the Qur'an

Key word : Milestones; Methodology; Ibn Attia; El-Mohrrar El-Wadjize.

مقدمة:

يُعد علم التفسير من أجلّ العلوم وأفضلها وأنفعها، وذلك لتعلُّقه بأفضل الكلام، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشرف العلم يكون على قدر شرف المعلوم؛ لذا كان الاشتغال بالقرآن الكريم، والعناية به – فهما وتفسيرا وبيانا – من أشرف الدراسات الشرعية وأَولاها بالاهتمام والدرس.

وقد حظي أهل التفسير بمزيد خصوصية – عند الله خاصة وعند الناس عامة – من شرف بالغ، وقدر عالٍ، وشأن رفيع؛ كما أن الفقهاء هم أكثر الناس إدراكا لمنزلة هذا العلم وأهله، وأخصهم بمعرفة مكانته، فهو وسيلتهم الأساسية للوقوف على كافة المعاني التي وردت في القرآن الكريم، وكذا أحكامه التشريعية.

ولما كان كتاب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز من أشهر كتب التفسير، للإمام ابن عطية الأندلسي [ت: 541هـ] فإن هذا المقال اقتصر على توجيه العناية البحثية إليه، معنونا بـ: معالم منهجية في تفسير ابن عطية الأندلسي، مستعينا ببعض الدراسات السابقة في ذات الموضوع[1].

أهمية الموضوع:

أهمية البحث في هذا الموضوع تتجاذبها عدة جهات:

الجهة الأولى: منزلة الإمام ابن عطية، فقد كان (رحمه الله) إماما في الفقه والتفسير والعربية، ذكيا فطنا مدركا، ومن أوعية العلم في مختلف العلوم والفنون.

الجهة الثانية: القيمة العلمية لكتابه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الذي يعتبر أجلّ آثاره العلمية وأشهرها، وقد بلغ فيه الغاية من حيث السبر والتدقيق والتحرير؛ يقول أبو حيان الأندلسي [ت: 745هـ]: "أجلُّ مَن صنَّف في التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير ... وكلامهما [2] فيه يدل على تقدمهما في علوم، من منثور ومنظوم، ومنقول ومفهوم، وتقلب في فنون الآداب، وتمكن من علمي المعاني والإعراب"[3].

الجهة الثالثة: ومتعلقها الحاجة الآنية لتفسير كلام الله سبحانه وتعالى، إذ لا شك أن الحاجة إلى التفسير تزداد، ويكثر دواعي وأسباب العناية بها كُلما تقدّم الزمان؛ يقول الزركشي [ت: 794هـ] (رحمه الله): " فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره، فهو يرتع منه في رياض ويكرع [4] منه في حياض"[5].

الإشكالية:

يتوجه الإشكال الجوهري للبحث نحو تحديد المعالم المنهجية التفسيرية وتجلياتها في تفسير: المحرر الوجيز؛ للإمام ابن عطية الأندلسي، وتتفرع عنه إشكالات عرضية جزئية منها: ما هي الأدوات والوسائل الاجتهادية التي استخدمها ابن اعطية الأندلسي ؟ وكيف وظّفها في تفسيره ؟

خطة البحث:

انتظمت خطة هذه الورقة البحثية في مقدمة وتمهيد ومبحثين ثم خاتمة:

جاء في التمهيد: ترجمة موجزة ومختصرة للإمام ابن عطية (رحمه الله) من جانبين: ذاتي وعلمي تناولت في الذاتي: اسمه ومولده ونسبه ووظائفه ووفاته، وفي العلمي: نشأته التعليمية، وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته، وثناء العلماء عليه.

وخُصص المبحث الأول لبيان المعالم المنهجية الذاتية في تفسير ابن عطية، وجاء في مطلبين: الأول: منهجه في التعامل مع الآيات الاعتقادية والثاني: مع الآيات التشريعية. أما المبحث الثاني: فكان حول المعالم المنهجية اللازمة والعرضية في تفسير ابن عطية في مطلبين أيضا: الأول: في المعالم المنهجية اللازمة في تفسير ابن عطية، وهي على ضربين: أساسية وتكميلية، والثاني: المعالم المنهجية العرضية في تفسير ابن عطية من حيثيتين: الأولى: حيثية الاستيعاب والاستيفاء، والأخرى: حيثية العرض. ثم خاتمة في آخر البحث احتوت على أهم النتائج المتوصل إليها.

المنهج المتبع:

تمّ استخدام المنهج الاستنباطي بغية الوقوف على أهم المعالم التفسيرية -محل البحث- مع الاستعانة بمنهجيْ الاستقراء والتحليل في بعض من جنبات هذا البحث.

تمهيد: ترجمة مختصرة للإمام ابن عطية (رحمه الله):

1- حياته الذاتية: وفيها بيان لاسمه ونسبه وتاريخ ميلاده، وكذا وظائفه، وأيضا سنة وفاته على النحو الآتي:

1-1- اسمه، مولده، ونسبه:

هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن خفاف المحاربي الأندلسي، كان مولده سنة: 481هـ[6].

1–2 وظائفه:

وَليَ قضاء المرية [7] في سنة: 529هـ، يقول ابن فرحون [ت: 799هـ]: "ولما ولي توخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة"[8].

1–3 وفاته:

توفي في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة: 541هـ[9].

2– حياته العلمية:

وفيه ذكر لنشأته التعليمية، ثم التعريج على أهم شيوخه من غير ترجمة لهم، وأخيرا تلاميذه فمؤلفاته، وهذا بيان ذلك:

2–1 نشأته التعليمية وشيوخه:

كان بيت ابن عطية بيتا عريقا وأصيلا في العلم، فجدّه غالب بن عبد الروف كانت له رحلة إلى المشرق، لقي فيها أبا القاسم ابن الجلاب الفقيه، وحمل عنه كتابه التفريع، أما والده فكان ذا معرفة واطلاع حسن، لذا فقد اعتنى به منذ الصغر، ولحق به الكبار، وطلب العلم وهو مراهق، وكان يتوقد ذكاء، وقوة قريحة، حدّث عن أبيه وعن الحافظ أبي علي الغساني، ومُحَّد بن الفرج مولى ابن الطلاع وأبي الحسين يحي بن أبي زيد المقري وأبي مُحَّد بن عتاب وغيرهم[10].

2–2 تلاميذه:

حدّث عنه أولاده وأبو القاسم بن حبيش الحافظ، وأبو مُحَّد بن عبد الله، وأبو جعفر بن مضاء وعبد المنعم بن الفرس، وأبو جعفر بن حكم، وآخرون [11].

2–3 مؤلفاته:

ألف كتابه المسمى بـ: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، وأحسن فيه وأبدع، وطار بحسن نيته كل مطار[12]. وله كتاب آخر ضمنه مروياته وأسماء شيوخه[13].

2–4 ثناء العلماء عليه:

قال أبو القاسم خلف بن بشكوال [ت: 578هـ]: "... وكان واسع المعرفة قوي الأدب متفننا في العلوم"[14].

وقال ابن فرحون: "كان فقيها عالما بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب ... كان غاية في الدهاء والذكاء"[15].

قال عنه الذهبي [ت: 748هـ] في السير: "الإمام العلامة شيخ المفسرين ..."[16].

المبحث الأول: المعالم المنهجية الذاتية في تفسير ابن عطية:

سنعمد في هذا المبحث إلى تخصيص العناية والدرس من جانبين هما: الاعتقادي والتشريعي، دون ما له صلة وتعلق بجهة الأخلاق والقصص، وذلك لسببين: **الأول**: أننا لم نعهد في كتب أهل التفسير أن يكون المفسر على قدر عال من الإحاطة بمسائل الاعتقاد والتشريع بمثل ما ألفيناه ووقعت عليه أيدينا في هذا الكتاب.

الثاني: أن الإمام ابن عطية لم يَحِد عن الجادة التي رسمها مَنْ سبقه من أهل التفسير في بابي القصص والأخلاق، لذا لم نرغب في جعله محلا للبحث، واكتفينا بما ذكرناه.

المطلب الأول: منهجه في التعامل مع الآيات الاعتقادية:

سنركّز في بيان المنهج على ما سار عليه الإمام ابن عطية (رحمه الله) غالبا في تفسيره للمسائل الاعتقادية، كما نشير إلى مخالفته لهذا النهج أحيانا، وذلك كالتالي:

أولا: سلوكه مسلك الأشاعرة والماتريدية في الصفات:

وهذا المسلك يقتضي أن الأصل في الصفات التفويض؛ فإن وردت شبهة وجب النزوع إلى التأويل.

ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلعَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [17]، قال (رحمه الله): "والعلي: يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان، لأن الله منزّه عن التحيز"[18].

وفي قوله تعالى: ﴿الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتوَى﴾ [19]، يقول: "وقوله الرَّحْمنُ رفع بالابتداء ويصحّ أن يكون بدلا من الضمير المستقر في: خَلَقَ. وقوله: اسْتَوى، قالت فرقة: هو بمعنى استولى، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين: هو بمعنى استواء القهر والغلبة، وقال سفيان الثوري: فعل فعلا في العرش سمّاه استواء، وقال الشعبي وجماعة غيره: هذا من متشابه القرآن يؤمن به ولا يعرض لمعناه، وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن هذا الاستواء، فقال له مالك: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء أخرجوه عني، فأدبر السائل وهو يقول يا أبا عبد الله لقد سألت عنها أهل العراق وأهل الشام، فما وفق أحد توفيقك. قال القاضي أبو مُحَّد: وضعّف أبو المعالي قول من قال: لا يتكلم في تفسيرها بأن قال إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواء ليست على عرفها في معهود الكلام العرب"[20].

ثانيا: ميله أحيانا إلى مذهب أهل الاعتزال – وإن أنكر عليهم –

ففي قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَة ﴾[21]، يقول (رحمه الله): "قالت فرقة وهي الجمهور: الْحُسْنى الجنة و«الزيادة» النظر إلى وجه الله عز وجل، وروي في نحو ذلك حديث عن النبي ﷺ رواه صهيب، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وحذيفة وأبي موسى الأشعري وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «الزيادة» غرفة من لؤلؤة واحدة، وقالت فرقة الْحُسْنى هي الحسنة، و«الزيادة» هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نص الحديث، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة: 261]، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجّح هذا القول، وطريق

ترجيحه أن الآية تتضمن اقترانا بين ذكر عمال الحسنات وعمال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم حسنى وزيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها فتعادل الكلامان"[22].

وفي قوله تعالى: ﴿وُجُوه يَومَئِذ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ [23]، يقول (رحمه الله): "... وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى، فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى: إلى رحمة ربها ناظرة، أو إلى ثوابه أو ملكه فقدروا مضافا محذوفا، وهذا وجه سائغ في العربية كما تقول، فلان ناظر إليك في كذا أي: إلى صنعك في كذا. والرواية إنما تثبتها بأدلة قاطعة غير هذه الآية، فإذا ثبتت حسُن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقوي، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله: (إلى) ليست بحرف الجر، وإنما هي إلى واحد الآلاء؛ فكأنه قال نعمة ربها منتظرة، أو ناظِرَةٌ من النظر بالعين، ويقال نظرتك بمعنى انتظرتك، ومنه قول الحطيئة: [البسيط]:

وقـد نـظـرتـكـم أبـنــاء عائـشـة   للخمس طال بها حبسي وتبساسي"[24].

المطلب الثاني: منهجه في التعامل مع الآيات التشريعية:

لا يخفى أن الإمام ابن عطية كان فقيها من فقهاء المذهب المالكي، ولذا فلا غرو أن تجد أقوالا كثيرة في مسائل عديدة لأئمة ومجتهدي المذهب، وهذه نماذج من تلك الاقتباسات:

ففي ماهية الكسوة في كفارة الحنث في اليمين، يقول: "في الرجل ثوب واحد، وقال ابن حبيب يكسى قميصا أو إزارا يبلغ أن يلتف به مشتملا، وكلام ابن حبيب تفسير، قال مالك: تكسى المرأة درعا وخمارا، وقال ابن القاسم في العتبية: وإن كسا صغير الإناث فدرع وخمار كالكبيرة والكفارة واحدة لا ينقص منها لصغير، قال عنه ابن المواز ولا تعجبني كسوة المراضع بحال، فأما من أمر بالصلاة فيكسوه قميصا ويجزئه، قال ابن المواز من رأيه: بل كسوة رجل كبير؛ وإلا لم يجزئ قال أشهب، تعطى الأنثى إذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل، ويجزئ وقاله ابن الماجشون"[25].

وفي المقابل أيضا؛ نجد له عناية بذكر الخلاف العالي[26]:

ففي مسألة (فروض الحج) يقول: "وفروض الحج: النية، والإحرام، والطواف المتصل بالسعي، والسعي بين الصفا والمروة عندنا خلافا لأبي حنيفة، والوقوف بعرفة"[27].

وفي (حكم العمرة) يقول: "واختلف في فرض العمرة فقال مالك (رحمه الله): هي سنة واجبة لا ينبغي أن تترك كالوتر، وهي عندنا مرة واحدة في العام، وهذا قول جمهور أصحابه، وحكى ابن المنذر في الإشراف عن أصحاب الرأي أنها عندهم غير واجبة، وحكى بعض القرويين والبغداديين عن أبي حنيفة أنه يوجبها كالحج، وبأنها سنة"[28].

المبحث الثاني: المعالم المنهجية اللازمة والعرضية في تفسير ابن عطية:

ونعني باللوازم ههنا: ما استصحبه المفسر ابن عطية من أدوات منهجية، أتى بها على أغلب المواطن -إن لم نقل كلها- فكأنها صارت لا تنفك عنه بحال، لذا عبّرنا عنها باللوازم. أما العوارض فهي الأدوات، وهي على نوعين: إما معالم وهي الأكثر شَبَهًا أو تعلقا بالجانب الشكلي، أو أدوات وظفها الإمام أحيانا وأغفلها - إما قصدا أو سهوا - في مواطن أخرى، لذا اصطلحنا عليها بالعوارض أو العرضية.

المطلب الأول: المعالم المنهجية اللازمة في تفسير ابن عطية:

وهذه المعالم على ضربين: الضرب الأول: **أساسية**، والثاني: **تكميلية**:

الضرب الأول: المعالم اللازمة الأساسية:

وتتجلى فيما يلي:

أ- الجانب النقدي التمحيصي:

لم يكن ابن عطية مجرد ناقل لأقوال المفسرين السابقين، بل كان ناقدا وسابرا ومنقحا ومحررا لكل ما ينقل ويروى في مختلف العلوم والمعارف والفنون.

ففي معنى الأحرف السبعة الواردة في الحديث ذَكَرَ اختلاف الناس فيها فقال: "اختلف الناس في معنى هذا الحديث، اختلافا شديدا، فذهب فريق من العلماء إلى أن تلك الحروف السبعة هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها، كتعال، وأقبل، وإليّ، ونحوي، وقصدي، واقرب، وجيء وكاللغات التي في: أف، وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة، وهذا قول ضعيف ... وقال فريق من العلماء: إن المراد بالسبعة الأحرف معاني كتاب الله تعالى، وهي: أمر، ونهي، ووعد ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. وهذا أيضا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى أحرفا"[29].

ب- البعد عن التعصب والتحرر من التقليد الصرف:

الإمام ابن عطية (رحمه الله) مالكي المذهب -كما هو معلوم - إلا أنه لم يكن متعصبا بل كان يتحرى الحق ويرومه، ويتمسك بأسبابه، ولعل مالكيته مردُّها إلى غلبة الفقه المالكي على القُطرين المغرب والأندلس، وتمسك العامة به وتعصبهم له.

ففي مسألة: (جواز نكاح الكتابيات) على قول المالكية رجَّح خلاف ذلك، جاء في تفسيره: "وقال ابن عباس والحسن: تناولهن العموم ثم نسخت آية سورة المائدة بعض العموم في الكتابيات وهذا مذهب مالك (رحمه الله)، ذكره ابن حبيب، وقال: ونكاح اليهودية والنصرانية، وإن كان قد أحلّه الله مستثقل مذموم، وكره مالك (رحمه الله) تزوج الحربيات لعلة ترك الولد في دار الحرب ولتصرفها في الخمر والخنزير، وأباح نكاح الكتابيات عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وجابر بن عبد الله وطلحة وعطاء بن أبي رباح وابن المسيب والحسن وطاوس وابن جبير والزهري والشافعي وعوام أهل المدينة والكوفة، ومنهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي وإسحاق نكاح المجوسية، وقال ابن حنبل: لا يعجبني، وروي أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية، وقال ابن القصار: قال بعض أصحابنا: يجب - على أحد القولين أن لهم كتابا - أن تجوز مناكحتهم. وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه إن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من كان على غير الإسلام حرام. قال القاضي أبو مُحَّد: فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في سورة المائدة، وينظر إلى هذا قول ابن عمر في الموطأ: « ولا أعلم إشراكا أعظم من أن تقول المرأة: ربها عيسى»، وروي عن

عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا: نطلّق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما..."[30].

ج- العدول عن الإسرائيليات والقصص:

وذلك نحو عدوله في تفسيره عما يعدُّ حشوا من القول وفضولا من الكلام، كما حاول التقليل من ذكر الإسرائيليات؛ بل وقف موقف الناقد الحازم لمن سبقه من أهل التفسير؛ لاعتبارهم إياه في مصنفاتهم ومؤلفاتهم وإيغالهم فيه؛ يقول في: **المقدمة** التي كانت مفتتح تفسيره "وقصدت فيه أن يكون جامعا وجيزا محررا، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به"[31].

الضرب الثاني: المعالم اللازمة التكميلية:

ويتجلى منهجه في درء التعارض والاختلاف بين الأقوال والآراء، فقد كان على الترتيب الآتي:

أ- الجمع بين الأقوال ما أمكن:

ففي الاختلاف الواقع في ماهية وحقيقة الصراط المستقيم يقول: "واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصِّراطَ في هذا الموضع وما المراد به، فقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ هنا القرآن. وقال جابر: هو الإسلام، يعني الحنيفية. وقال: سعته ما بين السماء والأرض. وقال محمَّد بن الحنفية: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره وقال أبو العالية هو رسول الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر. وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح. قال القاضي أبو محمَّد: ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المنعم عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين في معتقداته وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله ﷺ وصاحبيه"[32].

ب– الترجيح إما بالنص على القول أو بإضعاف مقابله:

مثال الترجيح:

ذكر الإمام ابن عطية في ماهية روح القدس ما يلي: "وقال ابن عباس (رضي الله عنه): روح القدس هو الاسم الذي به كان يحيي الموتى، وقال ابن زيد: هو الإنجيل كما سمى الله تعالى القرآن روحا، وقال السدي والضحاك والربيع وقتادة: روح القدس جبريل عليه السلام، وهذا أصح الأقوال. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: ((اهْجُ قُرَيْشًا وَرُوحُ القُدُسِ مَعَكَ، وَمَرَّةً قَالَ لَهُ: وَجِبْرِيلُ مَعَكَ))"[33].

ومثال الإضعاف: ما جاء في شهادة النساء في الأموال، يقول (رحمه الله): "والمعنى في قول الجمهور، فإن لم يكن المستشهد رجلين؛ أي: إن أغفل ذلك صاحب الحق، أو قصده لعذر ما، وقال قوم: بل المعنى فإن لم يوجد رجلان، ولا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال، وهذا قول ضعيف، ولفظ الآية لا يعطيه؛ بل الظاهر منه قول الجمهور"[34].

ج– ذكر الأقوال أحيانا دون الترجيح بينها:

ففي تأمين المأموم يقول: "... فمقتضى هذه الآثار أن كلّ داع ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: «**آمين**» وكذلك كل قارئ للحمد في غير صلاة، لكن ليس بجهر الترتيل. وأما في الصلاة فقال بعض العلماء: يقولها كل مصلّ من إمام وفذ ومأموم قرأها أو سمعها. وقال مالك في المدونة "لا يقول الإمام آمين، ولكن يقولها من خلفه ويخفون، ويقولها الفذ، وقد روي عن مالك (رضي الله عنه): أن الإمام يقولها سواء أسرّ أم جهر. وروي عنه: الإمام لا يؤمن في الجهر. وقال ابن حبيب: يؤمن، وقال ابن بكير: هو مخير، قال القاضي أبو مُحَّد عبد الحق: فهذا الخلاف إنما هو في الإمام، ولم يختلف في الفذ، ولا في المأموم إلا ابن نافع"[35].

المطلب الثاني: المعالم المنهجية العرضية في تفسير ابن عطية

وفي هذه المعالم سنتعرض لحيثيتين هما:

1– حيثية الاستيعاب والاستيفاء. 2– حيثية العرض، وتفصيلهما على النحو الآتي:

أولا: حيثية الاستيعاب والاستيفاء:

فمن حيث الجملة: فإن الإمام ابن عطية متى تعرّض لمسألة من المسائل ما، لم يتجاوزها إلى غيرها حتى يوفيها حقها من البحث والدراسة والاستقصاء والتنقيب، وإلا فإنه يحيلك على الموضع الذي جعلها فيه؛ وفصل فيه تفصيلا موسعا مبسطا.

ومن حيث التفصيل: فإننا نجمله في النقاط الآتية:

أ- الجانب الإعرابي والصناعة النحوية والصرفية:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا ﴾[36] ذكر أن يوما منصوبة بالفعل: ﴿وَاتَّقُواْ﴾ والتقدير اتقوا عذاب يوم، فكانت في محل نائب المفعول المطلق[37].

ب- العناية بمعاني الكلمة واشتقاقها:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذِينَ اعْتَدَوْا﴾[38] قال: "علمتم معناه: عرفتم، كما تقول: علمت زيدا بمعنى عرفته، فلا يتعدى العلم إلا إلى مفعول واحد، واعْتَدَوْا معناه تجاوزوا الحد، مصرف من الاعتداء، وفي السَّبْتِ معناه في يوم السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت، والسَّبْت مأخوذ إما: من السبوت الذي هو الراحة والدعة، وإما من السبت وهو: القطع؛ لأن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها"[39].

ج- الاستشهاد بالشواهد الشعرية على المعاني اللغوية:

ففي معنى اختلاف الليل والنهار: ذكر في معناه أن هذا يخلف هذا، وهذا يخلف هذا فهما خلفة، وذكر قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والأرآم يمسين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم"[40]

د- الاعتناء بأوجه القراءات مع بيان وجه اختيار القارئ للقراءة:

لقد خص الإمام ابن عطية القراءات القرآنية بمزيد اهتمام من حيث البحث والتفصيل، وكان ذلك جليا وظاهرا في تفسيره وباديا للعيان، فيذكر القراءات الصحيحة وحتى القراءات الشاذة منها، ثم يعمد إلى بيان ما تحتمله هذه القراءات وتكتنزه من معان وأحكام، وهذه نماذج من ذلك:

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ﴾ [41]، يذكر أن الإمام نافع قرأ وحده «ولا تسألْ» بالجزم على النهي، ثم أشار إلى وجه ذلك فذكر أنه قوله تعالى: "لا تسأل" كان على جهة التعظيم لحالهم من العذاب، كما تقول: فلان لا تسأل عنه، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر" [42].

كما أردف على ذلك بيان وجه قراءة جمهور القراء، وربطها بسبب نزول الآية فقال: روي فيه أن النبي ﷺ قال: «لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ» فنزلت: وَلا تُسألُ" [43].

ثانيا: حيثية العرض:

الناظر إلى كتاب المحرر الوجيز يلحظ القدرة العالية للإمام ابن عطية على التنظيم، وحسن الترتيب والتنسيق، وتفصيل ما تعلق بالعرض للسور وللآي عند إرادة تفسيرها كالآتي:

أ- ما يتعلق بالسور:

المتتبع لمنهج ابن عطية في عرض السور يجد أنه يبتدئ ببيان مكية السورة أو مدنيتها، اسم السور، عدد آياتها، فضلها، ثم يردف عليها فوائد أخرى.

ب- ما يتعلق بالآيات:

يعرج أساسا على فضل الآية ثم يُثنّي بسبب نزولها، ويثلّث بإيراد القراءات وتوجيهها، ويختم ببيان آراء الفقهاء إذا نصت الآية على حكم شرعي.

خاتمة:

وفيها أبرز النتائج المتوصل إليها، وهي كالآتي:

أولا: كان ابن عطية فقيها عالما بالتفسير والأحكام والحديث والفقه، والنحو واللغة والأدب وغيرها من العلوم والفنون.

ثانيا: في كتاب: المحرر الوجيز ظهرت شخصية الإمام العلمية استقراءً ومقارنة وتحليلا ونقدا، فضلا عن العرض الذي كان دقيقا فيه، واتسم بالاعتدال بين الطول والاختصار، لم يعلق فيه بوحلٍ أو شيء من غبار، ولم يعوقه خلاف في أي فن أو علم.

ثالثا: عمد ابن عطية -رحمه الله- إلى استثارة مُلَح التفسير في كتابه، واستخلاص مَعينه من مصادره، ولعل من أهم معالمه: الانصراف عن ذكر الإسرائيليات فيه، ونقده لمن سبقه من أهل التفسير المُكثرين من ذكر الإسرائيليات.

رابعا: يظهر تحرر الإمام من أي تقليد سواء كان عقديا أو فقهيا، من خلال الترجيح وبيان الحق والصواب -بحسب ما يظهر له- فقد كان يتحراه ويدعو إليه. فنجد في كتابه المفسر الناقد، والناقل المُنقِّح.

خامسا: لقد رجا الإمام ابن عطية في القراءات القرآنية الأجر والقربي؛ فلذا خصّها بمزيد عناية وعقد لها الحُبى، وبسط مسائلها، وقرر أوجهها، وأرسى قواعدها رسوّ الرُّبي، وهذا جلي ظاهر، فكان يذكر القراءات الصحيحة وكذا الشاذة منها جمعًا وتحقيقًا ودراسة وتفريعا.

سادسا: المتفحص لكتاب: المحرر الوجيز يرى فيض المنبع وذكوّ المرتع في التنظيم والتنسيق، وحسن الترتيب وغاية التوفيق، بلسان عربي بليغ فتيق.

وصلّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

1 - ينظر منها: عبد الوهاب عبد الوهاب فايد، منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، مصر، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1393هـ/ 1973م.

2 - الضمير عائد للزمخشري وابن عطية.

3 - أبو حيان، أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، لبنان، بيروت، دار الفكر، 1420هـ، ج:1، ص: 20.

4- أي: تعلّم برغبة وشغف.

5- الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، 1376هـ/ 1957م، ج: 1، ص: 5.

6 - ينظر: أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، مصر، القاهرة، دار الكاتب العربي، 1967م، ص: 389.

7- مدينة كبيرة من مدن الأندلس، فيها مرفأ للسفن ومراكب التجار. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، لبنان، بيروت، دار صادر، ط: 2، 1995م، ج: 5، ص: 119.

8- ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، مصر، القاهرة: دار التراث، ج2، ص: 57.

9 - السيوطي؛ جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، صيدا: المكتبة العصرية، ج2، ص: 73.

10 - ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تح: عزت العطار الحسيني، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1374هـ-1955م، ص: 369.

11- أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، مصر، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967م، ص: 389.

12 - إسماعيل الباباني البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لبنان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج1، ص: 502.

13 - الفيروز آبادي؛ البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، سوريا، دمشق، دار سعد الدين، ط1، 1421هـ-2000م، ج1ص178.

14 - ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ص: 369.

15 - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج2، ص: 57.

16 - الذهبي؛ شمس الدين، سير أعلام النبلاء تح: مجموعة من المحققين، لبنان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ-1985م، ج19، ص: 587.

17 - سورة البقرة، [الآية: 255]

[18] - ابن عطية؛ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ، ج1، ص: 342.

[19] - سورة طه، [الآية: 05]

[20] - المحرر الوجيز، ج4، ص: 36.

[21] - سورة يونس، [الآية: 26]

[22] - المحرر الوجيز، ج3، ص: 115.

[23] - سورة القيامة، [الآيتان: 22-23]

[24] - المحرر الوجيز، ج3، ص: 115.

[25] - المصدر نفسه، ج2، ص: 231

26 - الخلاف العالي في الصناعة الفقهية هو الخلاف مع المذاهب الأخرى، ويقابله الخلاف النازل وهو الخلاف داخل المذهب نفسه.

[27] - المصدر نفسه، ج1، ص: 266.

[28] - المصدر نفسه، ج1، ص: 266.

[29] - المصدر نفسه، ج1، ص: 43.

[30] - المصدر نفسه، ج1، ص: 296.

[31] - المصدر نفسه، ج1، ص: 34.

[32] - المصدر نفسه، ج1، ص: 74.

[33] - المصدر نفسه، ج1، ص: 176

[34]- المصدر نفسه، ج1، ص: 381.

[35] - المصدر نفسه، ج1، ص: 79.

[36] - سورة البقرة [الآية: 281].

[37] - المصدر نفسه، ج1، ص: 139.

[38] - سورة البقرة [الآية: 65].

[39] - المصدر نفسه، ج1، ص: 160.

[40] - المصدر نفسه، ج1، ص: 232.

[41] - سورة البقرة [الآية: 119].

[42]- المصدر نفسه، ج1، ص: 203.

[43]- المصدر نفسه، ج1، ص: 203.